

النسيج العمراني الجديد بمدينة القيروان خلال الحقبة الاستعمارية 1881-1956

عامر الرمضاني

باحث - تونس

لئن أبقى الاستعمار على الهياكل المحلية والبنى الموجودة بالبلاد خلال الفترة التي سبقت إمضاء معاهدة الحماية فإنه قد سعى بالمقابل إلى تفكيكها وتهميشها وذلك من خلال تركيز نظم وآليات تسيير موازية لها تعمل على توطيد هيمنته وتأكيد تفوقه وانتصاره⁽¹⁾.

هذه السياسة التي ترمي إلى تقويض كل موروث محلي لم تستهدف الهياكل السياسية والإدارية أو البنى الاقتصادية والاجتماعية فحسب، بل طالت كذلك مختلف الأسس الحضارية لعل أبرزها النظم العمرانية لأهم المدن التونسية.

فمنذ انتصاب الحماية، عمد المستعمر إلى زعزعة البنى الحضرية لأهم المراكز المدنية وذلك بتأسيس أنظمة عمرانية جديدة مجاورة للأنظمة المحلية وتقطع معها من حيث الطابع والمعمار ومن التركيبة السكانية وكذلك الجو العام ونمط العيش⁽²⁾.

(1) محجوبي (علي)، انتصاب الحماية الفرنسية بتونس، تعريب عمر بن ضو و، حليلة القرقروري وعلي المحجوبي، دار سيراس النشر، تونس 1986 ص. 110.

2) Beaujeu-Garnier (J.), *Traité de Géographie urbaine*, Armand Colin, Paris, 1963, p.84.

مثلت هذه الفضاءات الحضرية الجديدة أهم الأدوات والآليات التي اعتمدها المحتل لإخضاع المدن ولحسم الصراع الحضاري لصالحه (3). ولئن أفضى إحداثها إلى بروز ضرب من الازدواجية والثنائية على المشهد العمراني، فقد ترتبت عنها كذلك تحولات عميقة وانقلابات جذرية في المراكز والأدوار. فبقدر ما تدعمت أهمية هذه الفضاءات الجديدة التي استطاعت أن تتحول إلى مراكز المجالات الحضرية، تدهرجت الفضاءات الأصلية إلى مرتبة المدن التاريخية.

وسنحاول من خلال هذا المقال تبين أهم التحولات التي طرأت على النسيج الحضري لمدينة القيروان خلال الحقبة الاستعمارية. وسنهتم تحديدا بإعادة تشكيل الهيكلية العمرانية الجديدة التي صاغها المستعمر في إطار مواصلة مشروعه الاستعماري الرامي إلى تذويب الخصوصيات الحضارية لهذه المدينة "المقدسة" والذي بدأ يوم 26 أكتوبر 1881 تاريخ سقوطها بيد الجيوش الفرنسية التي عمدت لحظة احتلالها المدينة إلى انتهاك حرمة مساجدها وزواياها وفتح أبوابها لدخول غير المسلمين بعد منع دام عدة قرون 4. أما هدفنا فهو إبراز بعض الجوانب والمكونات العمرانية المغيبة والمنسية من تاريخ المدينة الحضري الذي لا يزال مختزلا في الفضاء التاريخي أي "المدينة العربي".

وسنتطرق في مستوى أول من هذا العمل إلى إبراز مميزات ومكوناته النسيج الحضري لمدينة القيروان قبيل انتصاب الحماية. أما في مستوى ثان سنحاول إعادة تشييد الفضاء العمراني الجديد. وسننتهي في مستوى ثالث وأخيرا إلى رصد مختلف التداعيات التي نتجت عن ظهور هذا الفضاء ضمن النسيج الحضري.

3) Huetz De Lemp (X.), «La ville européenne outre mer», In, **L'Histoire de l'Europe urbaine**, Vol II, Editions du Seuil, Paris, 2003, p. 271. انظر كذلك : Coquery Vidrovitch (C.), **La ville européenne outre mers: Un Modèle Conquérant ? (XV-XXe Siècles)**, l'Harmattan, Paris, 1996.

4) كانت القيروان تعد، منذ العهد الموحدي، المدينة الوحيدة بالايالة التونسية التي يمنع على غير المسلم دخولها أو الاقتراب من أسوارها. وقد جرت العادة على من يريد دخولها من الأوروبيين أن يحمل معه مرسوما ممضيا من طرف الباي ومصادقا عليه من قبل رجال الدين والشرع بالمدينة.

I- مميزات النسيج الحضري لمدينة القيروان ومكوناته قبيل انتصاب الحماية :

كثيرا ما قدمت مدينة القيروان في كتابات الزوار والرحالة الأوروبيين الذين تمكنوا من دخولها سواء في بداية أو في أواسط القرن التاسع عشر كأهم مدن الإيالة التونسية على الإطلاق من حيث محافظتها على طابعها العمراني العربي الإسلامي الصرف ومن حيث نظافة طرقاتها ومتانة مبانيها. (5)

وتعد القيروان ثاني مدن الإيالة بعد الحاضرة من حيث شساعة نسيجها الحضري الذي تميز بتنوع مشاهدته المعمارية وتعدد وظائفه الداخلية. حيث استطاع أن يجمع بين الفضاءات التجارية والتجمعات السكنية والمعالم الدينية التي قارب عددها نحو الخمسة وخمسين زاوية وعشرين مسجدا ستة منها معدة لخطبة الجمعة. (6)



مشهد عام لمدينة القيروان

(5) نذكر على سبيل المثال:

Guérin (V.), **Voyage archéologique dans la Régence de Tunis**, Plon, Paris, 1862, p. 322.

Monchicourt (Ch.), **Documents historiques sur la Tunisie ; relations inédites de Nyssen, Philippi et Caligari (1788, 1829, 1834)**, Société d'éditions Géo. Maritimes et Coloniales, Paris, 1928.

6) Pélissier (E.), **Description de la Régence de Tunis**, Editions Bouslama, Tunis 1980, p 118.

شيد هذا النسيج وفق قواعد ومرجعيات عربية إسلامية صرفة (7). وقد اختزل في مكونين رئيسيين تفصل بينهما الأسوار وهما المدينة والأرباض.

فبالنسبة إلى المدينة أو "المدينة المحوطة" فهي تقع داخل الأسوار وقد استأثرت بأغلب الأنشطة التجارية واحتضنت أبرز التشكيلات الاجتماعية وأرقى التجمعات السكنية وأهم المؤسسات الدينية.

استندت المدينة في تنظيمها إلى تصورات استجابت في مضامينها إلى اعتبارات اقتصادية واجتماعية بالأساس. فبواسطها توطنت الأسواق المخصصة لاحتضان مختلف الأنشطة الحرفية والتي توزعت وفق قواعد العرف الجارية في تنظيم المهن والتي تجعل لكل حرفة سوقا خاصا به.

امتازت هذه الأسواق بوفرة منتوجاتها وجودتها وبحركيتها الدائمة والنشطة (8). وقد تمثل أهمها في سوق الربع والعتارين الذي يعدّ من أقدم الأسواق التي أقيمت بالمدينة وسوق البلاغية الذي شيده الباي حسين بن علي ليختص في صناعة البلغة الصفراء التي لا يوجد لها نظيرا داخل الإيالة.



سوق الربع : أهم الأسواق وأهمها التي تعكس أهمية المدينة تجاريا

(7) حول القواعد والمرجعيات التي تضبط بناء المدن العربية الإسلامية أنظر

RAYMOND (A), *Grands villes arabes à l'époque ottomane*, Sindbad, Paris, 1985

BOUHDIBA (A) CHEVALIER (D) *La ville arabe dans l'Islam*, Tunis, 1978

MARÇAIS (G), *L'urbanisme musulman, mélange d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman*, Aller, 1957.

8) GUERIN (V.), *Voyage archéologique...Op.cit.*, p.331.

وتنتدج من حول هذه الأسواق عبر شبكة من الأزقة الضيقة والملتوية الأحياء السكنية التي غطت باقي النسيج الحضري للمدينة وتوزعت في شكل وحدات سكنية صغرى تعرف كل وحدة بالحومة. هذه الحومة لم يتجاوز مجالها عادة النهج الواحد وغالبا ما كانت العائلات الفاطنة بها تنتسب إلى نفس الأصول مثال ذلك : (حومة القرامطة، حومة الهوا شم، حومة الخضراوين...)

انتشرت هذه الحومات داخل المدينة وفق ترتيبية صارمة ودقيقة أساسها الجاه والثروة والتمايز العرقي. فانطلاقا من وسط المدينة باتجاه الجنوب تركزت أهم الأحياء السكنية والتي مثلت النواة الأولى للنسيج الحضري. تميزت هذه الأحياء بطابعها الأرستقراطي⁽⁹⁾. إذ احتضنت أهم العائلات القيروانية التي عرفت بكونها بيوت علم وفضل وامتازت - بالإضافة إلى ثراءها وعراقتها - برفعة حسبها ونسبها. ⁽¹⁰⁾ فهذه العائلات إما ذات نسب شريف مثل عائلة العوّاني، أو هي سليلات العرب الأوائل الفاتحين مثل عائلة صدام اليميني، عائلة عظم التميمي، عائلة دحمان الغساني، عائلة الرماح القيسي أو أنها عائلات دينية انتسبت إلى أهم الزوايا الموجودة بالمدينة مثل عائلة الفاسي، عائلة الوحيشي، عائلة بن خوذ البغداوي وعائلة المرباط الغرياني . ⁽¹¹⁾



ساحة عطاء الله أحد أهم الأحياء السكنية التي مثلت النواة الأولى للنسيج الحضري.

9) Idem, p.332.

10) ابن أبي ضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الجزء السابع، الدار التونسية للنشر 1990، ص20.

11) رقية(مراد)، "الوضعية البشرية والجبائية لسكان مدينة القيروان خلال النصف الثاني من القرن 19"، المجلة التاريخية المغربية، عدد 53-54 جويلية، 1987 ص 87-88.

اختزلت هذه الأحياء إداريا في وحدات ثلاثة تعرف كل وحدة بالحومة وهي حومة الجامع التي استمدت هويتها من جامع عقبة بن نافع وحومة الأشراف التي انتسبت إلى السادات الأشراف وأخيرا حومة الممر.

أما بخصوص الأرباض، فقد امتدت خارج الأسواق واختزلت في حومتين هما حومة الجبلية الواقعة شمال غربي المدينة والتي ضمت على سبيل الذكر ربض زواغة، ربض الفاسي، ربض الصفيحة وحومة القبلية الواقعة جنوب غربي المدينة والتي احتوت على سبيل المثال ربض اللصيص وربض الحديد. (12)



ربض الجبلية الواقع شمال غربي المدينة

خُصّصت هذه الأرباض لاحتضان الأنشطة التجارية البسيطة والمجموعات البشرية ذات الأصول المتواضعة. ويعود ظهورها إلى فترات متأخرة وحديثة. حيث ارتبطت في نشأتها بحركة نزوح المجموعات ذات الأصول الريفية والقبلية وخصوصا عرب جلاص وبتوافد البرابنية أصلي القرى والأوطان التونسية المجاورة إلى المدينة. وقد مثلت هذه الأرباض محطة أولية وأساسية لانتقال هذه الجماعات من طور البداوة والترحال إلى طور التمدن والاستقرار.

12) Kerrou (M.), «Quartiers et Faubourgs de la Medina de Kairouan, des Mots aux Modes de Spatialisations», *Revue Genèses*, n° 33, Décembre 1998, p. 65.

II- توسع النسيج الحضري ومراحل تشكل الفضاء العمراني الجديد غداة انتصاب الحماية :

شهد النسيج الحضري لمدينة القيروان إثر انتصاب الحماية ظهور فضاء جديد يجاور الفضاء التاريخي ويختلف عنه من حيث التخطيط والتنظيم. خضع هذا الفضاء من حيث تشييده وتجهيزه إلى تمثلات أوروبية بحتة. وقد عرف بالمدينة الفرنسية⁽¹³⁾ ونعت بالقيروان الجديدة⁽¹⁴⁾ (14). غير أن أهم تسمية ارتبطت به هي : "الحي الأوروبي".



مشهد عام للفضاء العمراني الجديد : المدينة الأوروبية

امتد هذا الحي جنوب الأسوار وقد مرت عملية بنائه بمرحلتين رئيسيتين. ففي المرحلة الأولى، شهد هذا الحي نشأة نواته الأولى. أما في المرحلة الثانية، فقد توسع هذا الحي وارتسمت حدوده النهائية.

13) Saladin (H.), **Tunis et Kairouan**, H. Laurens, Paris, 1908, p. 108.

14) Loth (G.), **La Tunisie et l'œuvre du protectorat français**, Ch. Delagrave Paris, 1907, p. 209.

1- نشأة النواة الأولى للحي الأوروبي :

ظهرت النواة الأولى للحي الأوروبي ضمن النسيج الحضري لمدينة القيروان إثر مغادرة بعض الأجهزة والمؤسسات المدنية الاستعمارية لوسط المدينة وانتصابها خارج باب الجلادين بربض الظهر الذي تم حل مشيخته وإحاقه بحومة القبلية قبيل انتصاب الحماية.

بدأت هذه النواة في التشكل منذ سنة 1884 تاريخ تشييد أول مبنى مدني وهو مكتب البريد والبرق.

وتدعمت سنة 1892 ببناء عدة منشآت مدنية أخرى أهمها المراقبة المدنية التي خيرت النزول بالأطراف الجنوبية الشرقية لحومة القبلية.

لكن إذا ما فسر خروج هذه المؤسسات في وسط المدينة على أنه إجراء حتميا اضطرت السلط الاستعمارية لاتخاذها بعد أن أدركت عجز هذا الفضاء على احتضان مؤسساتها واستيعاب مختلف مشاريعها ومخططاتها العمرانية التي أرادت إنجازها بداخله¹⁵. وإذا ما اعتبر الفضاء الواقع جنوب الأسوار - رغم مساوئه المتعددة - كأكثر المجالات تهيؤا وقدرة على احتواء كل أشكال التوسع الحضري مقارنة بالنواحي الأخرى التي يصعب اختراقها والتوطن داخله¹⁶. فكيف نفهم إصرار أهم مؤسسة استعمارية وهي المراقبة المدنية على النزول بأطراف ربض يغلب عليه طابع الترتيف ؟ لماذا كل هذا الحرص من قبلها على التوطن بركن مهجور سيما وأنها رمز السلطة السياسية الحقيقية بالمدينة وبإمكانها النزول بأي مكان تشاءه ؟ لماذا لم تحذو حذو بقية الأجهزة الاستعمارية الأخرى أي انتزاع قطعة أرض بيضاء تسع الهكتارات؟ هل يمكن أن يكون هذا التوطن هو توطن اضطراري واعتباطي كان دافعه التعجيل بتشيد مبنى للمراقبة المدنية خصوصا وأن جميع محاولات الإدارة العامة التي بدأت منذ سنة 1888 لإنزال هذه المؤسسة بوسط المدينة قد باءت بالفشل وبالتالي فإن

(15) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر بحثنا الذي أنجز لنيل شهادة الماجستير تحت عنوان : مدينة القيروان خلال الفترة الاستعمارية : التحولات المكانية والاجتماعية (1881 - 1956). إشراف الأستاذ حبيب القر دغلي، كلية الآداب والفنون والإنسانيات-منوبة، السنة الجامعية 2007-2008 .

(16) المرجع نفسه، ص. 34.

مشروع إنجاز هذا المبنى لم يعد يتحمل المزيد من التأجيل والانتظار؟ أم أن هذا التوطن هو توطن اختياري ومدروس يرمي المستعمر من خلاله إلى إبراز تفوقه وتأكيد انتصاره؟

في اعتقادنا، يتضمن نزول المراقبة المدنية بهذا العقار المهجور - إذا ما حددنا موضعه وتعرفنا على مالكة الاصلى - دلالات رمزية عميقة. فهذا العقار يحتل موقعا مرتفعا نسبيا مقارنة بالنواحي المحيطة به. بل ويمكن اعتباره أعلى نقطة داخل الفضاء الممتد جنوب الأسوار وحتى داخل النسيج الحضري بأكمله. وبالتالي فإن توطن هذه المؤسسة الاستعمارية بهذا الموضع من شأنه أن يوطد هيبتها ويزيد من علو منزلتها ويمكنها من إحكام قبضتها على المجال الحضري ومراقبته مراقبة دقيقة وصارمة. كما أن هذا العقار هو في الحقيقة ملك للحاج حسين بن المسعي قايد أولاد إيدير من قبيلة جلاص وأحد رموز المقاومة التي حاولت التصدي لزحف الجيوش الفرنسية القادمة لاحتلال المدينة المقدسة سنة 1881. وقد اضطر هذا القائد بعد فشل مقاومته إلى التراجع والتوجه مع بقية المقاومين إلى طرابلس حيث توفي. وكان فرنسا ومن خلال إرغامها لهذا العقار دون سواء لاحتضان مؤسستها السياسية أرادت - دون أدنى شك - تحدي هذا القائد والتأكيد على أن قوتها وإرادتها قادرة على أن تطول وتخضع الأملاك حتى وإن أفلتت من قبضتها العباد.

عموما، اقتصرت حركة التشييد خلال هذه المرحلة على إحداث بعض المباني المدنية، وشملت إلى جانب بناء كل من مكتب البريد والتلغراف ومقر المراقبة المدنية، إقامة رحبة النعمة (1888)، المسلخ البلدي (1891)، السجن المدني (1892) ومصلحة الجسور والطرق (1894).

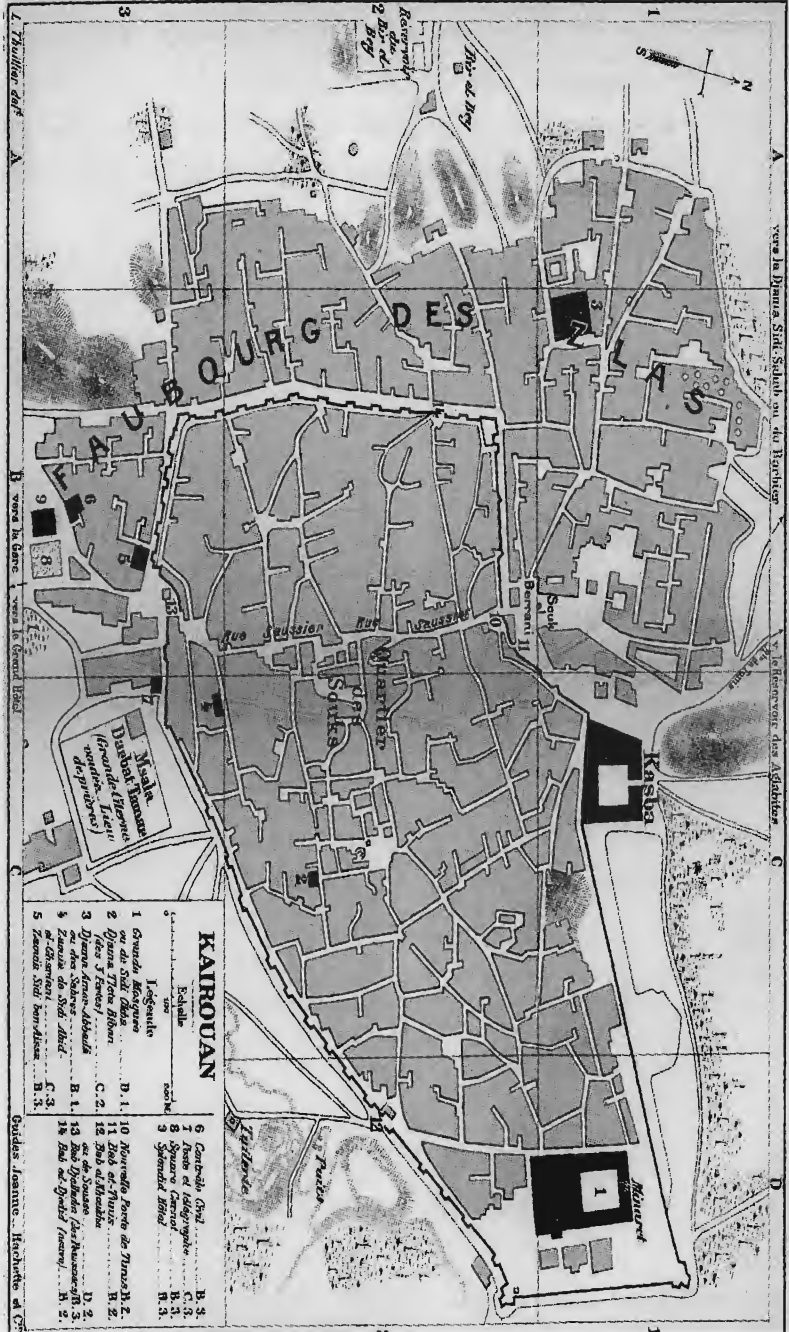
وبالتوازي مع اقتصارها على بعض المنشآت العمومية، تميزت عملية التوسع بضعف امتدادها. حيث انحصرت مواطن تركيز اغلب هذه المنشآت قبالة باب الجلادين.

وتعود محدودية هذا التوسع في الحقيقة إلى ضعف الحركة الاستعمارية بالمدينة خلال هذه المرحلة. فالحضور الأوروبي كان محدودا جدا إذ اقتصر على بعض عشرات الأفراد. ⁽¹⁷⁾ أما المؤسسة البلدية التي بعثت يوم 2 جوان

17) Poiré (E.) *La Tunisie Française*, Plon, Paris, 1892, p. 158.

1887 لتتولى تنظيم المجال وتتحكم في تطوره فقد تميزت منذ ميلادها بالقصور والعجز. حيث كانت تشكو ضعفا في مواردها المالية وتعاني من احتدام أجواء التنازع والتنافر بين أعضاء مجلسها البلدي الذي خضع في مستوى تركيبته التمثيلية قبل إعادة هيكلتها لسيطرة الأعضاء المسلمين⁽¹⁸⁾.

(18) بموجب الأمر العلى المؤرخ في 2 جوان 1887 و القاضي ببعث مؤسسة بلدية بمدينة القيروان تم تحديد تركيبة مجلس هذه المؤسسة بـ 10 أعضاء توزعوا على مجموعتين هما : مجموعة الأهالي المسلمين وقد تكونت من 6 أعضاء من بينهم قائد المدينة سي محمد المراتب الذي شغل منصب رئيس البلدية. ومجموعة الأوروبيين التي ضمت 4 أعضاء من بينهم السيد اثوزى (Athenosy) الذي شغل خطة نائب رئيس هذه المؤسسة.



مثال مدينة القيروان سنة 1905
Source : Guides Joanne, Algérie et Tunisie, Hachette, Paris, 1905

2- تطور النواة وبرز الحي الأوروبي كمعطى حضري جديد :

تتوافق بداية تطور النواة الأولى للحي الأوروبي خلال هذه المرحلة مع إعادة هيكلة تركيبة المجلس البلدي بتاريخ 5 ماي 1896 بالشكل الذي يضمن للأعضاء الفرنسيين الموجودين به سيطرة مطلقة على آليات القرار داخل المؤسسة البلدية⁽¹⁹⁾. وهو ما يعني بالتالي تطويع هذا الجهاز الإداري لخدمة المشاريع الاستعمارية والمتمثلة أساسا في تأسيس فضاء حضري جديد تتوفر به كل مستلزمات الحياة العصرية التي يحتاجها الأوروبيون المستقرون حديثا بالمدينة والتي ما انفكت أعدادهم تتزايد منذ أواخر القرن التاسع عشر⁽²⁰⁾.

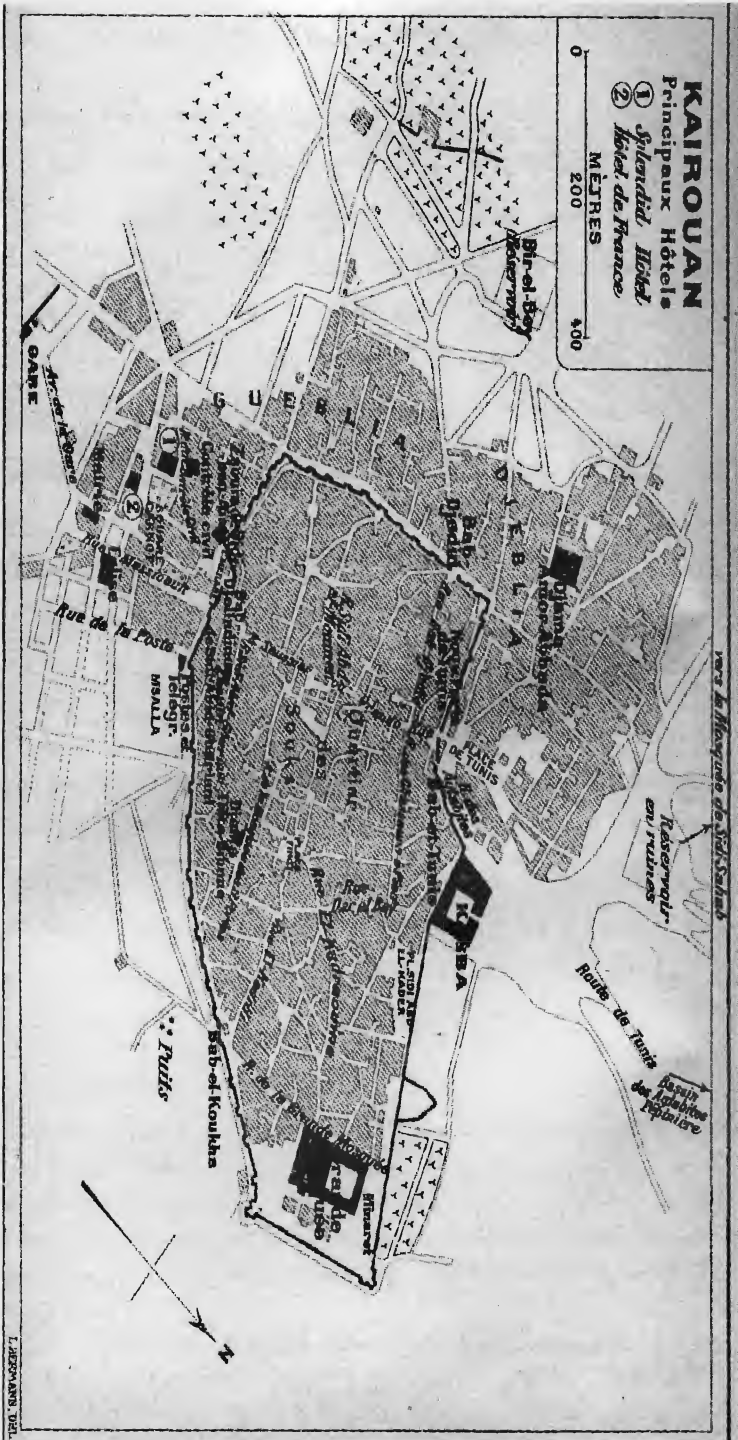
في الحقيقة، كان لهذه المؤسسة الحضرية الجديدة دور كبير في الانتقال بالنسيج الحضري لمدينة القيروان من فضاء أحادي البنية يختزل في المدينة وأرباضها إلى فضاء مزدوج التركيبية والمكونات وذلك من خلال إشرافها بصفة مباشرة على تطور هذا الحي الأوروبي وبرزه كمعطى حضري جديد مكتمل وقائم بذاته يجاور الفضاء التاريخي ويقطع معه من حيث الطابع والمعمار وكذلك من حيث الجو العام ونمط العيش.

بدأ هذا الفضاء الحضري في التطور ليأخذ هيئته الجديدة ويتحدد حجمه النهائي منذ مستهل هذه المرحلة. فقد توسعت نواته الأصلية نحو الشرق حيث اكتسحت كامل ربض الأحمر وامتدت جنوبا خارج باب الظهرة وانحصرت بالتالي حدوده النهائية بين باب الجلادين وأسوار المدينة شمالا ومحطة القطار جنوبا. وبين مبنى السجن المدني غربا وطريق سوسة (الطريق رقم 32) غربا⁽²¹⁾.

19) بمقتضى الأمر العلي المؤرخ في 5 ماي 1896 والذي ينص على صياغة مجلس بلدي جديد، تم إدراج ضمن التركيبة التمثيلية عضوا إسرائيليا وتعزيز التمثيل الأوروبي ليتساوى مع نظيره المحلي بتسمية عضوين جديدين. لكن ورغم هذا التساوي الشكلي في عدد الأعضاء (6 أعضاء داخل كل مجموعة)، فقد خضع هذا المجلس لهيمنة المجموعة الأوروبية التي ضمت كاهية المجلس (نائب رئيس) الذي أصبح الرئيس الفعلي يتمتع بصلاحيات مطلقة في فرض الأوامر وسن القرارات.

20) Rey (R.), *Voyage d'étude en Tunisie (10-28 Avril 1900)*, Ch. Delagrave, Paris, 1900, p. 83.

21) أرشيف إدارة الأشغال، ملف تهيئة الفضاء الواقع جنوب الأسوار، مراسلة ناظر الأشغال بالمدينة إلى مدير الأشغال العامة بتاريخ 25 جويلية 1896.



مثال مدينة القيروان سنة 1916

Source : Guides Joanne, *Algérie et Tunisie*, Hachette, Paris, 1916.

شهد هذا الفضاء - بصفة مبكرة- أشكال تنظيم حديثة وبرامج تهيئة وتحسين عصرية لم يعهدها النسيج الحضري للمدينة من قبل. فمنذ سنة 1896 خضع إلى أول مثال تصفيف بموجبه تشكل هيكله الأساسي وحدد محوره الرئيسي الذي تمثل في شارع ماسيكو^(*) Avenue Massicault الممتد من باب الجلادين شمالا إلى شارع المحطة جنوبا. اعتبر هذا الشارع مركز هذا الفضاء وقلبه النابض حيث تجمعت به أغلب الفضاءات التجارية والخدماتية وتركزت به الساحات والحدائق العمومية. (22)



شارع ماسيكو : مركز الحي الأوروبي وقلبه النابض

وبالتوازي مع تحديد محاوره ورسم طرقاته، تمت تسوية أجزائه (إزالة الربوات وردم المنخفضات) وتجفيف المستنقعات ومحو المزابل ونقل كل ما من شأنه أن يشكل خطرا على التجمعات السكنية الواقعة به مثل أفران الجير والشواطئ والمنادر خارج الدائرة البلدية.

وبالإضافة إلى تهيئته، تم تجهيزه بالمرافق الأساسية التي تمليها الحياة العصرية مثل إحداث شبكة تطهير تحتية تعوض المجاري المكشوفة وتزويده

22) L'Union Kairouanaise, le 6 Décembre 1908.

(*) ماسيكو : Massicault شخصية سياسية فرنسية شغلت منصب مقيم عام بنونس بين سنتي 1886 و1896

بالماء الصالح للشرب والتتوير العمومي وكذلك تعبيد وترصيف شبكة الأنهج والطرق التي توزعت داخله.

III- التداعيات الناجمة عن توسع النسيج الحضري : الفضاء الأوروبي الجديد مركز المدينة

ترتب عن هذا التوسع الذي طرأ على النسيج الحضري لمدينة القيروان جملة من التحولات أصبح بموجبها الفضاء الأوروبي الجديد مركز المدينة وقلبها النابض.

لقد تحول هذا الفضاء إلى مركز إداري هام توطنت داخله جميع الأجهزة والمؤسسات المدنية الاستعمارية التي اعتبرت الهياكل الإدارية الرسمية لهذه المرحلة الحاسمة من تاريخ المدينة. خصص لهذه المؤسسات مباني جديدة لئن راعت من حيث طابعها الهندسي الطابع المعماري المحلي فإنها جسدت من حيث ضخامتها هيمنة والمحتل قوته. فهذه المراقبة المدنية رمز السلطة السياسية الحقيقية قد نزلت بنهج الظهرة داخل مبنى حصين. وتلك المحكمة رمز السلطة القضائية قد تركزت بوسط شارع إتيان Rue Etienne⁽²³⁾ (نهج القاضي النعمان حالياً) داخل مبنى فسيح استجاب إلى حاجيات الموظفين. وبين هذه وتلك انتصب بشارع التكنة مبنى المعايير والدفعات (القباضة المالية) التي أنهكت كاهل الأهالي بالاداءات.



مبنى القباضة المالية

(23) إتيان Etienne : جنرال فرنسي تولى قيادة الجيوش القادمة من سوسة لاحتلال مدينة القيروان سنة 1881.

هذا وقد تدعمت أهمية هذا الفضاء إداريا، إثر نجاحه في جذب عديد المؤسسات التقليدية واستقطابها لعل أبرزها مؤسسة القيادة رمز السلطة المحلية التي أثرت تجاوز فضائها القديم والتكيف مع الواقع الاستعماري الجديد.

وبالإضافة إلى الأجهزة الإدارية، اختزل هذا الفضاء كذلك مجمل الأنشطة التجارية والخدماتية الحضرية الحديثة التي كانت وثيقة الارتباط بالحضور الاستعماري بالمدينة. فانتشرت داخله المغازات العصرية التي تخصصت في بيع المنتجات الأوروبية المستوردة التي أغرقت الأسواق المحلية. ووجدت كذلك المقاهي والحانات والنزل الفخمة على غرار نزل السبلاندي ونزل فرنسا. كما توفرت أيضا المؤسسات المالية (الفروع البنكية) التي جسدت سيطرة رأس المال الأوروبي الاستعماري على دواليب الاقتصاد المحلي



نزل السبلاندي، فضاء يعكس نمط عيش جديد
وعصري ونمط معماري أوروبي يجسد سيطرة المستعمر

أصبح هذا الحي الأوروبي فضاء سكنيا راقيا ومريحا (24) احتضن أهم التشكيلات الاجتماعية الجديدة أي العائلات الأوروبية الثرية والمتنفذة وكذلك بعض النخب المحلية وأيضاً أعيان الجهات المجاورة الذين رأوا في التقرب من فرنسا ومحاكاة نماذجها المعمارية العصرية بمثابة السبيل الوحيد والكفيل للمحافظة على امتيازاتهم المادية وحضوتهم الاجتماعية. وإبرازا لمكانتها

24) Despois (J.), *La Tunisie orientale...* Op.cit, p.482.

الاجتماعية وإمكانياتها المادية أقامت هذه العناصر الاجتماعية لنفسها المساكن الراقية والتي تنوعت بين المنازل ذات الطوابق المتعددة والفيلات الفخمة (25).

هذا وقد استجاب هذا الفضاء إلى إملاء الحياة العصرية باحتواءه للعديد من الفضاءات ذات الصبغة الترفيهية والثقافية والتي مثلت أمكنة أساسية لتسلية وإمتاع الأوروبيين. وقد تنوعت هذه الفضاءات التي عملت على توطيد سيطرة المستعمر بين أماكن التنزه والتجوال كالحدائق العمومية (حديقة بيشون - حديقة كارنو...) التي تخللتها النصب التذكارية لأبرز الشخصيات السياسية الفرنسية و بين أماكن الفرجة كقاعات السينما (قاعة سينما باريس) (26).

ولعل أبرز المعالم التي جسدت مركزية هذا الفضاء داخل النسيج الحضري وبالتالي نجاح السياسة الاستعمارية بالمدينة هو مبنى الكنيسة الكاثوليكية الذي تركز سنة 1913 بقلب الحي الأوروبي مواجهاً لجامع عقبة بن نافع الذي يعمل جاهداً على الدفاع عن فضاء تقليدي يقع بالطرف المقابل سجين أسواره، بدا منهكاً بالمتاعب وفاقداً لكل توازن .



الكنيسة الكاثوليكية : رمز الديانة المسيحية بالمدينة

25) Saladin (H.), **Tunis...** Op.cit, p.108.

26) Santelli (S.), **Tunis, le creuset Méditerranéen**, édition Demi-cercle, CNRS, Collection La ville, Paris, 1995, p. 68.

حول الحدائق العمومية ودورها في إضفاء طابعا فرنسيا على المدن التونسية خلال الحقبة الاستعمارية، انظر :

-Zhioua (I.), «Les jardins publics en Tunisie, Conditions ou conséquences de la construction sur le mode occidental.», **étapes de recherches en paysage**, n° 4, ENSP, Versailles, 2002, p.p. 7-23.

فعلى نقيض هذا الفضاء الاستعماري الجديد الذي دخل مسار التطور والصعود، دشّن الفضاء التقليدي منذ انتصاب الحماية مرحلة من التراجع بلغت حد الركود والجمود. ومظاهر هذا التقهقر عديدة ومتنوعة ويتمثل أبرزها في :

- توقف الحركة المعمارية وتفاقم ظاهرة تداعي المباني وانتشار الخرب والأوساخ وتفشي الأوبئة وكذلك تدهور الوضع الأمني بداخله⁽²⁷⁾.

- تصدّع قواعد تنظيمه المتداولة المرسومة منذ القدم وذلك إثر حلول أجناس جديدة (الأوروبيون واليهود) لم تبالى بالأعراف المرتبة للسكن ولتوطن الأنشطة التجارية وقد ساهم حضورها في خلق مشاكل على مستوى التعايش اليومي. فهؤلاء الوافدون الجدد قد نجحوا في "التسلّل" إلى الفضاءات الخاصة بالأهالي المسلمين والتعاطي داخلها أنشطة خالفت النواميس والأعراف التي تضبط السكان المحليين مثل بيع الخمر ولعب القمار وممارسة الدعارة... هذا بالإضافة إلى ممارسة أنشطتهم خارج أطرها التقليدية المتعارف عليها (الأسواق)، داخل الأحياء السكنية بمنازل كانت محل شبهات⁽²⁸⁾.

- تدهور مؤسساته الإدارية التقليدية المشرفة على تسييره والتي فقدت كل تأثير لها وتحولت تبعاً لذلك إلى هياكل تابعة للأجهزة الاستعمارية الحديثة. فمؤسستي القيادة والمشخة قد أصبحتا تحت إمرة المراقبة المدنية. أما بعض أمناء المهن مثل أمين المعاش فقد الحقوا وادمجوا كلياً بالمؤسسات العصرية على غرار المؤسسة البلدية. في حين أن بقية الخطط الأخرى كاللواجة وقايد الشوارع قد الغيت نهائياً ولم يبق لها أثر.

- تراجع حركية أسواقه التي شهدت في ظل تأزم قطاع الحرف إفلاس وتداين أغلب تجارها حرفيها وغلق معظم دكاكينها وتحول قسم هام من

(27) أ.و.ت، السلسلة E، صندوق 621، ملف 6م. فرعي 1، وثيقة 1، مراسلة أهالي المدينة إلى عاملها علي المراتب بتاريخ 19 جوان 1894.

(28) أ.و.ت، السلسلة أ، صندوق 85، ملف 1م. فرعي 3، وثيقة 23، مراسلة عامل المدينة إلى الوزير الأكبر بتاريخ 16 فيفري 1904.

المخازن والفنادق الواقعة بها إلى مقاه وفضاءات مخصصة للسكن الجماعي⁽²⁹⁾.

- فقدانه لأبرز نخبه و تشكيلاته الاجتماعية أي العائلات "البلدية" النازلة داخله منذ القدم والتي تراجعت هيبتها وحضوتها المادية والمعنوية فاضطرت إلى الهجرة للمدن المجاورة بحثا عن فرص عيش أفضل. ومقابل خروج هذه العائلات التقليدية، شهد هذا الفضاء حلول - وبأعداد غفيرة - جماعات جديدة ذات أصول قبلية متواضعة عمّقت أزمته وأضفت عليه طابعا من التريّف⁽³⁰⁾.

- تقلص عدد أحيائه (إلغاء مشيخة حومة الممر سنة 1896)⁽³¹⁾ وتراجع طابعه المعماري العربي الإسلامي في ظل تزايد عدد المباني المشيدة على النمط الأوروبي. فالدكاكين قد عوضت بالمغازات العصرية. أما الدور ذات الطابق الواحد قد حلت محلّها المنازل ذات الطوابق المتعددة والنوافذ المطلة على الأنهج والشوارع⁽³²⁾.

ورغم عمق هذه الأزمة التي أصبح يتخبط فيها هذا الفضاء، فقد كان تدخل الإدارة الاستعمارية للحد منها محتشما وبسيطا. بل وأبعد من ذلك، فقد انطوى هذا التدخل على خلفيات خطيرة كان هدفها تحنيط هذا الفضاء وتحويله إلى مزار للسياح. وهو ما يعني بالتالي تعميق الفجوة القائمة بينه وبين الفضاء الأوروبي الجديد المجاور والمقابل له.

ففي مرحلة أولى، اقتصر هذا التدخل على تحسين واجهته وتجميلها وذلك من خلال تزويده بالماء الصالح للشراب وبالإضاءة وإحداث شبكة تطهير تحتية وتبليط طرقاته وترصيفها وغرس حاشيتها بالأشجار. هذا بالإضافة إلى

(29) أ.و.ت، السلسلة أ، صندوق، 85 ملف، 1 م. فرعي، 20 مراسلة علي المرابط عامل المدينة إلى الوزير الأكبر بتاريخ 4 أوت 1900.

(30) Despois(J.), «Kairouan. Origine et évolution d'une capitale Musulmane», **Annales de Géographie**, 1930, p.170.

(31) أ.و.ت، السلسلة أ، صندوق، 84 ملف، 1 م. فرعي 1. وثيقة 10 مراسلة علي المرابط عامل المدينة إلى بوعتور الوزير الأكبر بتاريخ 27 جوان 1896.

(32) أ. و.ت، السلسلة أ، صندوق، 82 ملف 8، وثيقة، 1 مراسلة المراقب المدني إلى الكاتب العام الحكومة التونسية بتاريخ 29 أبريل 1920.

توسعة أبوابه وإحاطته بالشوارع العريضة التي ضيّقت عليه الخناق وزادت من عزلته.

أما في مرحلة ثانية، فكان الحرص على تأمين طابعه التاريخي وذلك بسن جملة من الأوامر العلية تصنّف أهم معالمه كأبنية أثرية وتحفظ الطابع المعماري الشرقي الأصيل لمعظم أجزائه.

خاتمة

مثل انتصاب هذا الفضاء العمراني الجديد بمدينة القيروان أبرز أشكال الهيمنة الاستعمارية على نسيجها الحضري. فقد جسد سيطرة المحتل وعكس انتصاره السياسي وتفوقه الرأسمالي وتقدمه الحضاري.

لقد اندرج تأسيس هذا الفضاء ضمن مشروع استعماري متكامل يهدف إلى تذويب جملة الخصوصيات الحضارية التي انفردت بها هذه المدينة التي كانت تعد المدينة الوحيدة باللايالة التي يمنع على غير المسلم دخولها أو حتى الاقتراب من أسوارها.

وإذا ما تمكن المستعمر من فتح أبوابها لدخول الأوروبيين واليهود، وإذا ما عمد إلى تدنيس مقدساتها و"تشويه" وتهميش موروثها الحضري، فهل نجح في طمس رمزيّتها؟ هل فقدت القيروان أهميتها ومكانتها كعاصمة دينية وروحية لللايالة التونسية؟

مهما يكن من أمر الهيمنة الاستعمارية، فقد حافظت القيروان على تلك المنزلة التي تبوأتها منذ تأسيسها.

فقد ظلت المدينة المقدسة ورمزا للهوية والذات والذاكرة المحلية.

الملاحق

الجدول رقم 1 : تطور عدد الفضاءات التجارية والخدماتية الواقعة داخل الفضاء العمراني الجديد "الحي الأوروبي"

خلال الفترة الممتدة بين 1910 و1956

سنة 1956		سنة 1910		الفضاءات الشوارع والأنهج
الفضاءات الخدمائية	الفضاءات التجارية	الفضاءات الخدمائية	الفضاءات التجارية	
15	17	6	11	شارع ماسيكو Avenue Massicault
8	10	1	3	شارع بيشون Avenue Pichon
10	15	-	-	طريق سوسة Route de Sousse
7	7	2	4	طريق صفاقس Route de Sfax
3	11	1	6	نهج إتيان Rue Etienne
4	5	2	3	نهج ميشو Rue Michaud
3	5	1	2	نهج برييار Rue de Breard
50	70	13	28	المجموع

المصدر - أرشيف بلدية القيروان، دفاتر الأداءات البلدية، دفترتي أداء معاليم الأكرية الموظفة على المباني الواقعة بالفضاء البلدي لسنتي 1956-1910

جدول رقم 2 : تطوّر عدد المباني السكنية الواقعة داخل الفضاء
العمراني الجديد " الحي الأوروبي"
بين سنتي 1910 و1956.

سنة 1956		سنة 1910		الشوارع والأنهج
القيمة الكرائية (بالفرنك)	عدد المباني السكنية	القيمة الكرائية	عدد المباني السكنية	
540.500	37	//	13	شارع بيشون
455.000	24	//	12	شارع المحطة
231.750	10	//	5	شارع التكنة
398.000	33	//	6	نهج المراقبة
201.500	15	//	7	نهج لافيغيري
207.000	11	//	6	نهج إتيان
239.000	13	//	3	نهج البريد
133.500	22	//	4	نهج برييار
2406.250	169	//	56	المجموع

المصدر نفسه.